

**دور جمعية العلماء المسلمين في نشر الوعي التحرري لدى
المجتمع الجزائري
من منظور سوسيو تاريخي**

نوار بورزق، جامعة العربي التبسي - تبسة

noura.bourzg@univ-tebessa.dz

أحمد شنتي، جامعة العربي التبسي - تبسة

The role of the Association of Muslim oulamas in spreading
the liberal
awareness of Algerian society, from a Historical sociologist
perspective

Nouar BOUREZG, Ahmed CHENTI,

Abstract:

After a century of France's occupation of Algeria, and what an owner from the physical and moral destruction of the capabilities of Algerian society and the components of its identity, the Association of Muslim oulamas was founded in order to repair what was corrupted by the Colonial machine, as an entrance to realized the greater goal of the liberation of Algeria, this goal set by the association, needed a popular incubator conscious of it, and a serious work and long patience, it to the implementation of a comprehensive social reform project derived from the sources of the Islamic religion, based on the dedication of the values of freedom and tolerance, reinforcing his connection with the Arabic language and his affiliation with the Islamic nation. Taking advantage of any occasion to take political attitude that direct the people to unite around the demand for freedom, and these actions and efforts resulted in the association penetrating deep into Algerian society and embracing its apparent and inward goals, and was able to defeat ignorance and spread the liberating awareness between its members.

Keywords: Role, Spread, Association of Muslim oulamas, Liberating awareness, Algerian society.

المخلص:

بعد قرن من احتلال فرنسا للجزائر، وما صاحبه من تدمير مادي ومعنوي لقدرات المجتمع الجزائري ومكونات هويته، تأسست جمعية العلماء المسلمين بغية إصلاح ما أفسدته الآلة الاستدمارية، كمدخل لتحقيق الهدف الأكبر وهو تحرير الجزائر، هذا الهدف الذي وضعته الجمعية كان يحتاج إلى حاضنة شعبية واعية به، وإلى عمل جاد وصبر طويل، وهو ما جعلها تسطر مشروعا إصلاحيا اجتماعيا شاملا مستنبطة محاوره من مصادر الدين الإسلامي، قائم على تكريس قيم الحرية والتسامح، معززا ارتباطه باللغة العربية، وانتماهه للأمة الإسلامية. مستغلة كل فرصة لاتخاذ مواقف سياسية توجه الشعب إلى الالتفاف حول مطلب الحرية، وأسفرت هذه الأعمال والجهود إلى تغلغل الجمعية إلى عمق المجتمع الجزائري واحتضان أهدافها الظاهرة، والباطنة، وتمكنت من دحر الجهل، ونشر الوعي التحرري بين أفرادها

الكلمات المفتاحية: دور، نشر، جمعية العلماء المسلمين، الوعي التحرري، المجتمع الجزائري،

مقدمة :

لا جرم أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعد إحدى أهم التنظيمات الإصلاحية المجتمعية التي تركت بصمتها بجلاء في سجل تاريخ الدولة الجزائرية المعاصرة؛ على الرغم من كونها تأسست والاحتلال موقن من أن الجزائر قد صارت مكون من مكونات الهيكل الفرنسي. كيف لا وقد مر على مجيء ديبرمون مئة سنة، وبحق لقد كان الاحتلال الفرنسي احتلالا هداما لا هم له غير نسف بنيان الهوية الجزائرية غير مفرق في ذلك بين تراثها وتراثها، وهذا ما كان له أليم الأثر على كينونة الفرد الجزائري إذ أمسى فردا منكسرا ومهزوزا نفسيا وقيميا، تائها لا أمل له في التحرر من هذه الأغلال الصدئة الثقيلة، بيد أن كل هذا لم يحل دون خروج الجمعية إلى عالم الوجود

رافعة عقيرتها رافضة له، مطالبة بإرجاع الحقوق إلى ذويها وإعادة الأمور إلى نصابها.

ولما كانت عملية الإصلاح الاجتماعي كما تنص عليه الأدبيات التنظيرية لا تتحقق من تلقاء نفسها وإنما تحتاج إلى تحديد أهداف يمكن من خلالها تجسيد ما تصبو إليه، وهو ما لم تغفله الجمعية، فقد وضعت مخططا متكاملا قصد إيجاد حواضن شعبية لإقناع أفراد المجتمع الجزائري بمشروعها، الذي كانت منتهى غاياته -وإن لم يفصح عنها- تحرير الجزائر شعبا وأرضا من هذا الاحتلال الذي أهلك الحرث والنسل، لذلك أطلقت مشروعا علميا تعليميا شاملا، لسان حاله يقول: "علمه ولا تماري أنه سوف يتحرر"، انطلاقا من أن تحرير الأوطان لا يتم إلا بتحرير الإنسان. وهو مؤشر على وضوح الرؤية الاستشرافية للجمعية ووضوح آفاقها، فقد أمنت بأنه لا سبيل إلى ذبح وريد الاحتلال إلا بشحن سكين الوعي التحرري.

فكيف إذن تمكنت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من نشر هذا الوعي التحرر يبين مختلف شرائح المجتمع الجزائري؟

1- المرجعية الفكرية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

لا بد لكل حركة إصلاحية دعوية من مصادر تستنبط منها فكرها وترسم وفقها منهاجها. وجمعية العلماء في ذلك شأنها شأن أغلب الحركات الإصلاحية التي شهدتها العالم الإسلامي على اختلاف منطلقاتها ومشاربها، وسنة الله في هذه الحركات الإصلاحية أنها عادة ما تنشأ في كنف واقع اجتماعي محتقن متأزم، والوضع المجتمعي الجزائري لم يكن ببدعة عن ذلك، فقد شن الاحتلال حربا هوجاء لا هوادة فيها على مقومات هذا الشعب، أملا أن تحل الفرنجية محل العربية، والنصرانية محل الحنيفية، وكل هذا كان بروح حاكمة صليبية من يوم وطأت أقدام المارشال ديبرمون سواحل سيدي فرج، وتلاوته لأي الإنجيل ورفع القساوسة الصليبان على أعالي المباني والصوامع معلنين "فتح باب جديد للمسيحية في الجزائر، حتى أن التقارير الفرنسية تشير إلى أن سلطات الاحتلال في خطوة منها لضرب مقومات هذه الأمة؛ عملت مبكرا على ضم نظام الأوقاف الذي كان يمثل العصب الأساس للشؤون الاجتماعية والتعليمية والدينية

الجزائريين، حتى أضحت الميزانية المخصصة لكل مسلم تقل اثنين وعشرين مرة عن الميزانية المخصصة لكل كاثوليكي، ومئة وعشرين مرة عن الميزانية المخصصة لكل بروتستانت و سبع مرات عن الميزانية المخصصة لكل يهودي (شارل ريبور أجرون، 2013، 121)

لم تكن معالم هذه الحرب الصليبية بخافية عن الجزائريين، فما ازدادوا بدينهم إلا اعتصاما، وما ازدادوا للغتهم إلا اهتماما، وتمخض عن هذه السنة التدافعية بين الحق والأباطيل ظهور نواد وجمعيات حملت على عاتقها واجب الذود عن ثوابت هذه الأمة ومبادئها وكان منها جمعية العلماء (خير جمعية أخرجت للناس على حد تعبير الابراهيمي)، التي أخذت القرآن الكريم مصدرا أساسيا في صياغة منهاجها، وهو ما عبر عنه الشيخ عبد الحميد بن باديس بقوله: "القرآن إمامنا، والسنة سبيلنا، والسلف الصالح قدوتنا، وخدمة الإسلام والمسلمين وإيصال الخير لجميع سكان الجزائر غايتنا" (صلاح الدين الجرشي، 1978:40)، وتطهير الإسلام مما علق به من بدع وخرافات، مثل غلوا الطرقيين في شيوخهم وبناء القباب والذبح عندها والاستغاثة بأهلها، وهذا المسلك من الطرقيين "هو علة العلل في الإفساد ومنبع الشرور"، (سعيد مزيان، 2013: 141-145)، وقد اعتبر الابراهيمي إن كل ما هو متفش في الأمة من ضلال في العقيدة، وابتداع في الدين والحاد في الناشئة، وغفلة عن الحياة فمرده إلى الطرقيين (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، 2009: 47)

لم تكن الجمعية لتبتدع كينونة اجتماعية جديدة، وإنما ركزت جهودها على إحياء الأخلاق والقيم التي جاء بها القرآن، وتجنح إليها الأمة بطبيعتها الإنسانية وبم نزع الكمال الكامن في النفوس، وقد حفظها الله تعالى علينا بالإسلام (عشراتي سليمان، 2010، 7)، وذلك بدعوة أفراد المجتمع الجزائري إلى العودة إلى: "عقائد الإسلام المبنية على العلم، وفضائله المبنية على القوة والرحمة وأحكامه المبنية على العدل والإحسان، ونظمه المبنية على التعارف بين الأفراد والجماعات" (صلاح الدين الجرشي، 1978:41). ووسائلها في ذلك: بناء المساجد والمدارس ونشر الصحف والدوريات، وتأسيس الفرق الرياضية،

والأفواج الكشفية والفرق الموسيقية. كما استغلت قانون 1901 لتأسيس النوادي، قصد احتضان شريحة واسعة من الجزائريين ممن لا علاقة لهم بالزوايا والمساجد والكتاتيب، ولهذا كانت النوادي أحسن فضاء للتشبع بالحس الوطني والديني من خلال المحاضرات والخطب التي تتناول مختلف القضايا الاجتماعية والدينية والسياسية (حميدي أبو بكر الصديق، يعيش محمد، 2011: 168).

2- خصائص المنهج الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين

لكل حركة اصلاحية منهجا ارتضته لنفسها تتمثله وتسير على بينة منه، وجاءت خصائص منهج الجمعية من مشكاة تجارب عركتها السنون والأيام، فلم يكن منهجها تنظيريا سابحا في أخيلة بعيدة عن واقع ما يعيشه الناس، لقد استوى منهج الجمعية على سوقه والجزائري يتجرع غسلين الاحتلال ولا يكاد يسيغه ولم يكن علماء الجمعية حدثاء أسنان ولا سفهاء أحلام إذ حاولوا ملاينة الإدارة الفرنسية ومداراتها، فابطنوا لها ما تبغض وأظهروا لها شيئا مما تترتاح إليه وتطمئن له، إلا أن هناك من الفرنسيين من لم تخف عليهم أهداف الجمعية، فحذروا من خطرها وناصبوها العدا من اليوم الأول، ففي تقرير قدمه رئيس المخابرات الفرنسية للأمين العام لحكومة الاحتلال؛ حذر فيه من دعائم الجمعية والتمثلة في:

رابطة الانتماء: وهو ذلك الشعور الذي يحمله كل مسلم اتجاه أخيه المسلم باعتبار المسلمين أمة واحدة على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وتباعد أوطانهم ودورهم، وهو شعور غذاه مشروع الجامعة الإسلامية الذي دعا إليها جمال الدين الأفغاني، وطالما اتهمت الصحافة الفرنسية الجمعية بتبني هذا المشروع وتحريض الجزائريين على الانفصال عن فرنسا (انظر التعليق رقم: 1).

المرجعية الدينية: وذلك بعودتها إلى منابع الإسلام الصافية بعيدا عما لصق به من بدع وخرافات خلال قرون التخلف الذي عرفته الأمة الإسلامية.

رابطة اللسان: التي تعضد رابطة الدين والتي تعمل الجمعية على نشرها وتعليمها باعتبارها لغة الوحي (عبد الله مقلاتي، 2014: 21-22).

وقد اتسم المنهج الإصلاحى لجمعية العلماء الجزائريين بجملة من الخصائص :

1-2 : الربط بين العلم والعمل : قام هذا المنهج على لزوم اقتران العلم بالعمل، إذ لا يكون الإصلاح مثمرا إلا إذا انبنى على أسس علمية. والعلم لا طائل له ينفع و يؤثر ما لم يتجسد في أعمال محسوسة ومشاريع ملموسة(عشراتي سليمان أ، 2010: 241).

وهذا التلازم يستوجب التعدي من الصلاح المنكفئ على الذات إلى الإصلاح المتطلع إلى الغير على جسر من العلم الموصل للعمل، والذي بواسطته نتمكن من تكييف واقعنا بما يعود علينا بالنفع، فنحل مشاكلنا ونذلل صعوباتنا.

وهذا ما تجسد في حياة زعيم الجمعية الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي ظل وفيا لهذه الربانية، فقد عاش عالما عاملا، لا يستهويه التنظير ولا شغلته الجاذبيات التأملية والفكرية التي كثيرا ما تستحوذ على اهتمام أهل الفكر، فتضيع جهودهم في تركيب الرأي وتفكيكه، غير مدركين لواقعهم الاجتماعى من حولهم (محمد الميلي، 2007: 46).

وبهذا تكون شعارات الإصلاح التي جاءت بها جمعية العلماء أفعال وممارسات يراها الناس بأعينهم ويلمسونها بأيديهم فيزدادون بها إيمانا و يقينا، وحولها دعما والتفافا.

2-2 المزوجة بين الأصالة والمعاصرة: لقد زواج مشروع الإصلاح الذي سلكه رجال الجمعية، بين الأصالة والمعاصرة، وبين الماضي والحاضر، يستلهم أفكاره من تراث الأمة وماضيها ليكون واقعا رأي العين في حاضرها، فهو يدعو إلى الأخذ بمحاسن الماضي دون إغفال علوم العصر ووسائل الحضارة المقتبسة من الشعوب المتقدمة، كل ذلك مع المحافظة على استقلالية الشخصية الوطنية (معمر داود، 2009 : 301).

2-3 قيمة الحرية: لما كان الدين الإسلامى هو منهل ومعين الفكر الإصلاحى للجمعية، وهو دين الحرية، وهي الحقيقة التي أشار إليها ابن باديس حين قال: "حق الإنسان في الحرية كحقه في الحياة، ومقدار

ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من حرية" (محمد الملي، 2007: 46).

وقد ناضل كثيرا من أجل هذا المعنى الشريف، لأن الحرية رأس القيم ومن دونها تفقد الحياة روحها وزينتها، وفي أحضان الحرية يؤتي الإبداع أكله، وابن باديس مؤسس النهج الإصلاحية لما يتحدث عن الحرية، يبرز لنا عظيم مكانتها لديه، فالحرية عنده: " لا تعني تغول الفرد متناسيا حدود حريته، ولكنها حق جماعي يشمل جميع مظاهر الحرية من حرية المعتقد إلى ممارسة الحقوق السياسية، ثم هي بعد ذلك مرتبطة بمفهوم حضاري (محمد الملي، 2007: 35).

2-3 : قيمة التسامح: لقد كان ابن باديس مثلا وقوة فيما يتلفظ به من وعظ وإرشاد، إذ كان مثالا حي القيم الحلم والتسامح، ف"لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب"، ولا أدل على ذلك من عفوه عن حاول قتله عن سبق إصرار وترصد (أحد مريدي الطريقة العيلوية).

إن العودة إلى سيرة الإمام ابن باديس تستشف منها أن الصفح عنده "منهج حياة"، فقد اختار الصفح والعتو عن الناس حلية يتقلدها، وخليقة يعرف بها نفسه، ففي صورة تعريفية له نشرتها مجلة الشهاب في أبريل 1935، يظهر فيها حاملا للمصحف الشريف، وقد كتب أسفلها بخط يده أربعة أبيات من الشعر شارحا فيها سيمائية الصورة وما تشير إليه من دماثة خلق صاحبها جاء فيها:

وسامح أخاك إن ظفرت بنقصه وسل رحمة ترحم ولا تكتسب
إثما (عمار طالبي وعبد المالك حداد، 2017، 279).

3- الاهتمام باللغة العربية في المنهج الإصلاحية لجمعية العلماء كداعم لنشر الوعي التحرري:

أدرك الاستعمار الفرنسي في الجزائر أنه لا سبيل لإبعاد الجزائري عن قرآنه إلا بانتزاع الحرف العربي من لسانه حتى لا يكاد يتلوه، وإن تلاه فلا يكاد يفقهه. وهذا ما يمكن اعتباره استعمارا لغويا خبيث النوايا. وقد تفتنت جمعية العلماء المسلمين لخطورة هذه السياسة، فتصدت إليها بإحياء اللغة العربية وعلومها، ليس من باب عرقي أو عنصرية، بل هي عروبة لغة وثقافة، جوهرها اللسان العربي الذي امتزج بالإسلام امتزاج اللحم بالدم (علي محمد الصلابي، 2017:

115)، وقد فرق ابن باديس بين العربية كلسان وبين العرب كعرق، فطالما ردد "نحن امازيغ عربنا الإسلام"، فلم يربط العروبة بالإثنية والجنس، بل ربطها باللسان، "فمن تكلم العربية فهو عربي"، وهذا ما نجده جليا في كتاباته، فهو يقرر الأصل الامازيغي للجزائر دون أن يحاول إنكار ذلك أو تجاهله، فالامازيغ دخلوا في "الإسلام وتعلموا لغة الإسلام، العربية، طائعين فوجدوا أبواب التقدم في الحياة كلها مفتوحة في وجوههم فامتزجوا بالعرب بالمصاهرة وقاسموهم في مجالس العلم وشاطروهم سياسة الملك وقيادة الجيوش. فأقام الجميع صرح الحضارة الإسلامية. متحدا غاية الاتحاد متمتزا غاية الامتزاز. وأي افتراق يبقى بعد أن اتحد الفؤاد واتحد اللسان" (محمد الميللي، 2007: 47-48)، فنفتخت من روح العربية فيه، وحققت للجزائري نسبة العربي الصريح، فحسب ابن باديس فان الدين الإسلامي لا يفقهه إلا من فقه اللسان العربي (فتح الدين بن أزواو، 2012-2013: 86)، فكان من أنشطة الجمعية اللغوية إحياء دراسة متونها كالأجرومية والألفية، وأثبتت جمعية العلماء المسلمين للمستعمر أن الدماء البربرية التي مازجت الدم العربي أصبحت عربية بحكم الإسلام، مزاجا فطريا" احكمت القدرة تداخل أجزائه، والتحام نسبي وصل التاريخ أطرافه" (محمد البشير الإبراهيمي، 2011: 57). إن اهتمام الجمعية باللغة العربية هو تمسك بدين وأصالة هذا الشعب، لهذا شجعتها وجعلت منها وسيلة التعليم والتعامل بين مختلف أفرادها، وإن تمسك الأمة بلغتها، سيكون دافعا جديدا للذود عن بعض مكتسباتها، ولا يزيدها من مستعمرها إلا نفورا وهذا ما يسمح برفع مؤشر الوعي التحرري في مخيالها

والمطلع الحصيف على كتابات رجال الجمعية وشعرائها يجد ذلك جليا في أدبياتهم قبل حتى إندلاع الثورة، وقد تحدث سعد الله عن أسماء "الشعر الثوري" الذي يمجّد الفكر الثوري ويحيي مآثرها ويصف ما يعانیه الشعب من ضيم واضطهاد، وقد تربّع شعراء الجمعية على عرش هذا النوع من الشعر، وقد كتب شاعر الجمعية أحمد سحنون (انظر التعليق رقم: 2) فخاطب المعلم يدعو له لصناعة الأبطال وادخارهم لساحة الحسم:

هات من نشء الحمى خير عتاد وأدخرهم لغد جند جهاد
هاته جندا قويا باسلا إن دجى خطب يكن أول فاد
وبنفس اللهجة خاطب التلميذ الذي رمز به إلى الجيل الجديد فقال:
لج الاستعمار في طغيانه كل يوم منه ألوان اضطهاد
لغة الضاد التي ما برحت لغة الإعجاز سيمت بكساد
دينك الإسلام في أوطانه ناله المكروه من أيدي الأعداي
وليكن حاديك تحرير الحمى إن تحرير الحمى للحر حاد (أبو القاسم
سعد الله، 2007، 504، 294).

كما اعتنى أدياء الجمعية بالأناشيد الوطنية وألونها عناية كبيرة باعتبارها تبتث الحماس في الناشئة وتشد على أيديهم في التمسك بالوطن والعمل على تحريره، ومن ذلك ما نظمه ابن باديس في عدة مناسبات، ففي نشيد اشهدي ياسما الذي ارتجله في حفل أقامته مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة يوم 24 ديسمبر 1937 أفسح عن توجهه الثوري. (قسم إحياء تراث الجمعية، 2009: 66). ومن هذه الأناشيد نجد "ألحان الفتوة" لمحمد الصالح رمضان، وهي أناشيد تمجد الجسارة والإقدام والتضحية في سبيل الوطن، فضلا على محمد الصالح رمضان، نجد الطاهر التليلي ومحمد الشبوكي، ويعد نشيد "جزائرنا" لهذا الأخير والتي تغنى فيه بأبطال وجنود ومجاهدي الثورة وكان سببا لما لاقاه الشاعر من محن طيلة ست سنوات في السجون والمعتقلات الفرنسية (أحمد عيساوي، 2008: 78-79)

4- المواقف السياسية لجمعية العلماء المسلمين ودورها في نشر الوعي التحرري:

على الرغم من أن الموثيق الرسمية لجمعية العلماء تتحدث عن ابتعادها عن النشاط السياسي، فقانونها الأساسي ينص على أنها جمعية ارشادية تهييبيية، لا يمكن لها أن تخوض في المسائل والشؤون السياسية، بيد أن الجمعية ما فتئت منذ تأسيسها بالخوض في غمار السياسة، والاهتمام بالشأن العام للجزائريين، (إبراهيم مياسي، 2010: 176)، ففي تقرير سري لأمن عمالة قسنطينة حذر فيها من الدعاية التي يقوم بها ابن باديس ضد الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، لم تستثن حتى الأطفال في المؤسسات التعليمية من أجل الحيلولة دون

مشاركتهم في الذكرى (عمار طالبي وعبد المالك حداد، 2017: 375).

وكانت الإدارة الفرنسية تطمع من وراء تأسيس الجمعية إلى ملء الفراغ الذي تركه القضاء على حركة الأمير خالد وحل النجم، ورأت في تأسيس الجمعية تجميعا لكلمة علماء الدين في الجزائر واحتواء المعادين والمعارضين لسياستها في بوتقة واحدة تكون فيها الغلبة للموالين لها، ولعلم مؤسسي الجمعية بهذه النوايا، فقد اخفوا في سبيل مداراة الإدارة الفرنسية أهدافهم البعيدة وسالموها حتى لم يبق للصبر منفذ (أبو القاسم سعد الله، 1992: 85)، فخاضت الجمعية في الشأن العام للجزائريين، وولجت للعمل السياسي فدعت إلى مؤتمر إسلامي عام "يجمع الشمل ويوحد الصف، ويحدد الهدف، لان المرجع في أمور الأمة يعود إلى الأمة" (محمد خير الدين، 1985: 327)

وقد ساهم ابن باديس والعقبي والإبراهيمي وخير الدين وتفانوا في نجاحه، كما نجدهم أيضا في صلب الوفد المكلف بتقديم الميثاق المطالب الذي وضعه المؤتمر والدفاع عنه بباريس (علي مراد، 2007: 228-230)، وشاركت في البيان الجزائري سنة 1943، وفي الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها في سنة 1951، وفي جبهة تحرير الجزائر (محمد الهادي الحسني، 2012: 101-102)، لم يقتصر نضال الجمعية على التراب الجزائري، فقد أدركت الجمعية مبكرا أهمية نشر الوعي الوطني لدى الجالية الجزائرية في المهجر، فأرسلت سنة 1936 الشيخ الفضيل الورتلاني على رأس وفد من العلماء، حيث استطاعت إن تفتح نوادي للتعليم والوعظ والإرشاد واحيت المناسبات الدينية والوطنية، مستعينة بمجموعة من الدعاة والمصلحين المشاركة (انظر التعليق رقم: 3)، من جهة أخرى احتضنت شعب الجمعية في باريس في جوان 1954 الخلية الأولى في المهجر للجنة الثورية للوحدة والعمل التي ضمت في صفوفها كل من عميروش، سعيد مداح، عبد الحفيظ أمقران، يوسف مقران، بشير إزمرا، أحمد صخري، سعيد حواسين وطاهر سي بشير؛ وينتمي كل هؤلاء إلى شعب الجمعية في باريس، وكان مقر الشعبة المركزية في

سان دوني في ضواحي باريس مركزا لاجتماعاتهم (مولود عويمر،
2016: 199-202)

اعتبرت سلطات الاحتلال الفرنسي خوض الجمعية في العمل
السياسي مروقا عن قانونها الأساسي، ورأت في صنيعها خطرا على
وجودها في الجزائر يفوق خطره اشد خصومها وأكثرهم تأثيرا في
أوساط الجزائريين، فعملت على التضييق عليها وعلى رجالها من
خلال العديد من القرارات والإجراءات الجائرة ضد مؤسساتها
ومدارسها ونواديها (سعيد بورنان، 2012: 92).

وقد حاول احد ضباط المخابرات الفرنسية "جاك كاري" في محاضرة
له ألقاها على مسامع ضباط الاستخبارات الفرنسية إلى لفت الانتباه
إلى خطر شعار الجمعية "الجزائر وطني" بقوله:

- إنها تعني النضال ضد كل اندماج للجزائر في فرنسا، وضد التجنس،
- النضال في سبيل استقلال الجزائر.

- دولة إسلامية يشكل فيها العلماء هيئة استشارية

- النضال في سبيل الوحدة الإسلامية (محمد الهادي الحسني، 2012:

103)

لم يخالغ ابن باديس ادني شك في استقلال الجزائر، وعلى حد
تعبيره فإن "الصباح قد اقترب"، وأن "الاستقلال" حق طبيعي لكل أمة
من أمم الدنيا، وقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم والمنعة
والحضارة، ولسنا من الذين يدعون علم الغيب مع الله ويقولون أن
حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد" (عبد الحميد بن باديس،
1997: 320).

كما رفض مجلس الجمعية الإعلان عن تأييد فرنسا بعدما لاحت
بوادر الحرب العالمية الثانية، بل صرح ابن باديس بعد أن ضغطت
فرنسا على رجال الجمعية من اجل استصدار فتوى تدعو فيها الشعب
الجزائر للاصطفاف خلف فرنسا، فرد ابن باديس بكلمة بقيت في عقبه
"لو طلبت مني فرنسا أن أقول لا اله إلا الله لما قلتها" (محمد الميلي،
2007: 64)، وقد تحدث بعض طلابه ومقربيه عن فكرة إعلان
الثورة على فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية غير ان الموت كان
اقرب إليه من تنفيذ أمانيه (إبراهيم مياسي، 2010: 177-178، سيد

حسين عفاني، دت: 327-329)، ومما اثر عليه في رده على أحد أبرز دعاة الإدماج "فرحات عباس"، الذي نفى وجود الأمة الجزائرية قوله: "إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولن تستطيع أن تصير فرنسا؛ ولو أرادت!!، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد" (محمد علي الصلابي، 2017: 549).

وقد سأل بعض الشباب المتحمس المستعجل الشيخ ابن باديس عن عدم دعوته للاستقلال؟ فقال لهم: "يا أبنائي من أراد أن يبني منزلا هل يبدأ بالسقف؟ قالوا: لا، قال، فيماذا إذن؟ قالوا: بالأساس والجدران، فقال: هذا ما افعله، الآن نبني الأساس والجدران ثم نبني السقف" (سيد حسين العفاني، دت: 327)، وهكذا جاءت ثورة نوفمبر ليتحقق ما أفنى من اجله ابن باديس بياض نهاره وسواد ليله، ففي مذكرة سرية من رئيس دائرة الاستعلامات العامة بقسنطينة بعد وفاة ابن باديس بثمانية عشر سنة اعتبر فيها ابن باديس "الأب الروحي لحركة التمرد في 1945 و1954 وملهم عقيدة جبهة التحرير" (عمار طالبوي وعبد المالك حداد، 2017، 493-494).

بهذه المواقف استطاعت الجمعية أن تجمع حولها الناس وتؤلبهم على خصومها من الاندماجين الذين دخلت معهم في صراعات عميقة. كما برهنت على قدرة ممارستها للسياسة بمهارة عالية، على الرغم من أن قانونها الأساسي ظاهره يمنحها من ذلك واستطاعت أن تراوغ المستعمر وتسجل عليه أهدافا عدة، والجمعية لم تتوقف هنا وإنما راحت تسجل حضورها في الشأن العام كلما سنحت الفرصة بذلك، وأصبحت من خلال ذلك فاعلا اجتماعيا رئيسا في التعبير عن مكنونات المجتمع الجزائري، ونبضا صادقا عن طموحاته وأماله.

خاتمة

بغزو فرنسا للجزائر وفي سبيل إزالة هويتها العربية والإسلامية، سخرت كل ما ملكت يمينها، وانتهجت أشنع أنواع السياسات لتحقيق هدفها. ومع انصرام قرن من الزمان ظنت أنها قد

أفلحت في تحقيق أمانيتها، فأقامت الاحتفالات والمهرجانات إحياء لذكرى الاحتلال.

وهو ما أثار حفيظة الجزائريين، فانتفضوا معلنين عن تشكيل جمعيتهم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قصد إصلاح حال الأمة وفقا لمبادئ الدين الإسلامي الحنيف والمحافظة على قيمها وهويتها. والتي اهتمت بإصلاح الفرد إيمانا منها بأن ذلك طريق استعادة الشخصية الجزائرية الإسلامية لهذا الشعب، وقد اعتمدت على مقاربة روحها المزوجة التطبيقية بين العلم النافع والعمل الصالح، وقد استمدت تصوراتها من الوحي فهو الكوثر الذي لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، واستلهمت تطبيقاتها من سنة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام، واستعانت بأعمال من سبقوها إلى هذا الطريق.

وهو ما انعكس على الثورة المجيدة كون الجمعية نجحت في تكوين جيل يدافع مضحيا عن قيمه وهويته. وبهذا نجحت في كسب رهان التربية والتكوين وكانت سببا في دحر المستدمر بإعاقه سياسته التغريبية التنصيرية. ولا طالما حرصت غاية الحرص على سقي فسيلة كره الاستعمار في قلوب الجزائريين حتى عادت نخلة باسقة قطف الشعب جناها ثورة مقدسة اللهب. اتفقت أهدافها مع الفكر التحرري الذي أوجدته عنده جمعية العلماء المسلمين من خلال نشر الوعي التحرري عن طريق عديد الأنشطة الميدانية، التي منها ما هو تربوي ومنها ما تعليمي ومنها ما هو تثقيفي. غير مغفلة لدور المرأة والشباب في كل ذلك لأهمية وظيفتهما الاجتماعية

التعليقات:

(1): كان لرجال الجمعية علاقات وطيدة مع دعاة الإصلاح في المشرق، وقد سبق للإمام محمد عبده زيارة الجزائر والالتقاء بعلمائها سنة 1903 فوجد فيها "حزبا عبديا" يتشكل ممن تأثروا بفكره وعلمه دون ان يكون الشيخ عبده نفسه عالما بذلك (محمد الهادي الحسني، 2012: 178)، كما بارك تلميذه محمد رشيد رضا قيام جمعية العلماء؛ معتبرا اياها نتاجا لنبوغ جيل من العلماء جمع بين العقل والرأي وحسن البيان يبيت في البلاد الدعوة إلى الحق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر (عمر رياض، ديسمبر 2012، 96).

(2): يعد الشيخ احمد سحنون من رجال الجمعية الثوريين، وفي هذا الإطار كان يدعو الجزائريين إلى وجوب الانخراط في العمل المسلح، حيث أقدم على تشكيل فوج من الفدائيين قبيل الثورة في المسجد الذي يؤمه، ولنشاطه الداؤوب لصالح الثورة تم اعتقاله في 24 ماي 1955 وزج به في السجن حيث لاقى اصناف شتى من التعذيب، ولعودته في العمل للثورة بعد ان تم اطلاق صراحه سنة 1959، تم تدبير عدة عمليات اغتيال باءت كلها بالفشل، لينظم إلى المجاهدين في جبال الأوراس حتى وقف اطلاق النار في 19 مارس 1962 (محمد دراجي، 2013: 27-30، الطيب برغوث، 2011: 101).

(3): كان لكثير من علماء المشرق دور في دعم الجمعية ماديا ومعنويا، وفي هذا الإطار ساهم الشيخ محمد عبد الله دراز صاحب التأليف المشهورة في النشاطات الثقافية والدعوية التي كانت الجمعية تشرف عليها بفرنسا، كما راسله الشيخ ابن باديس من أجل التدخل لدى مشيخة الأزهر لقبول الطلبة الجزائريين في صفوفها، كما كانت لأمير البيان الأمير شكيب أرسلان علاقات وطيدة مع قادة الجمعية من ابن باديس إلى الإبراهيمي والمدني والزاوي والعقبي والميلي والزاھري وغيرهم من رجال الجمعية، ويعد أرسلان أكثر الشخصيات المشرقية حضورا في الصحافة الجزائرية، وكانت سلطات الاحتلال الفرنسي تتوجس من علاقته بقيادة الحركة الوطنية خيفة وهذا ما حملته إرسالية سرية موجهة إلى الحكومة العامة بالجزائر تنص على تأثيره الكبير في الوسط المسلم الجزائري (مولود عويمر ب، 2016: 43، 97، أحمد صاري، 2004: 84-86).

المراجع:

1. الإبراهيمي محمد البشير، (2011). آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الثالث (عيون البصائر). تقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، تونس: دار الغرب الإسلامي.
2. ابن أزواو فتح الدين، (2013-2012). البعد العربي الإسلامي في الحركة الوطنية الجزائرية وثورة أول نوفمبر (1962-1927). أطروحة غير منشورة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه العلوم في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر 2، الجزائر.
3. أجرون شارل روبيير، (2013). المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية، تر: محمد العربي ولد خليفة، ط 2، الجزائر: منشورات تالة.
4. برغوث الطيب، (2011): أسرار القوة والقدرة في المسيرة الرسالية للشيخ أحمد سحنون، الجزائر: دار النعمان للطباعة والنشر والتوزيع.
5. بورنان سعيد، (2012). نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فرنسا 1936-1956، الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.

6. جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، (2012). سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر: دار المعرفة.
7. الحسني محمد الهادي، (2012). نجوم ورجوم، الجزائر: الشروق للإعلام والنشر.
8. حميدي أبو بكر الصديق ويعيش محمد، (2011). "تجربة التعليم الحر لدى الحركة الإصلاحية الجزائرية"، ورقة عمل مقدمة إلى أعمال الملتقى الوطني الأول حول التعليم في الجزائر أثناء الاحتلال 1830-1952، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 14-15 جوان 2009، الجزائر: العالمية للطباعة والخدمات.
9. خير الدين محمد، (1985). مذكرات الشيخ خير الدين، ج 1، الجزائر: مطبعة دحلب.
10. دراجي محمد، (2013). الشيخ أحمد سحنون: العالم الشاعر والداعية الصابر، الجزائر: دار قرطبة.
11. رياض عمر، (ديسمبر 2012). "علاقة مجلة المنار الإصلاحية بمفكري الجزائر (1898-1935)"، المواقف، جامعة معسكر، العدد (7). ص.ص. 81-108.
12. سعد الله أبو القاسم، (1992). الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثالث (1930-1945). ط 4، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
13. سعد الله أبو القاسم، (2007). تاريخ الجزائر الثقافي: ج 10 (1954-1962). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
14. سعدي مزبان، (2013). قضايا ودراسات تاريخية، الجزائر: مطبعة النجاح.
15. صاري أحمد، (2004). شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، تقديم: أبو القاسم سعد الله، غرداية: المطبعة العربية.
16. الصلابي علي محمد أ، (2017). كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال (الجزء الثاني) وسيرة عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والإصلاحية، بيروت: دار المعرفة.
17. الصلابي علي محمد ب، (2017). كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال (الجزء الثالث) وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي، بيروت: دار ابن كثير.

18. صلاح الدين الجرشي، (1978). تجربة في الإصلاح، ابن باديس، تونس: مطبعة فانزي.
19. طالبي عمار وحداد عبد المالك، (2017). ابن باديس من خلال الإجازات والوثائق وتقارير المخابرات الفرنسية، الجزائر: شركة الأصالة للنشر.
20. ابن باديس عبد الحميد ، (1997). كتاب آثار ابن باديس، الجزء الأول كم المجلد الثاني، إعداد وتصنيف: عمار طالبي، ط 3، الجزائر: الشركة الجزائرية.
21. العفاني سيد حسين، (د.ت). زهر البساتين من مواقف العلماء والربانيين، ج 5، القاهرة: دار العفاني.
22. عامرة تركي رابح، (2012). الشيخ عبد الحميد بن باديس: راند الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ط 5، الجزائر: المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والإشهار.
23. عشراتي سليمان أ، (2010). ابن باديس، التحول من برزخية القول إلى حضور الفعل، ج 2، الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع.
24. عشراتي سليمان ب، (2016). ابن باديس، حواشي وهوامشمن الصميم، ج 3، الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع.
25. عويمر مولود أ، (2016). جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: مسارات وبصمات، الجزائر: شركة الأصالة للنشر.
26. عويمر مولود ب، (2016). العلاقات الثقافية بين الجزائر والمشرق العربي في القرن العشرين، عين مليلة: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.
27. عيساوي أحمد، (2008). الشيخ محمد الشبوكي شاعر الثورة الجزائرية الثائر، عين مليلة: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.
28. قسم إحياء تراث الجمعية، (2012). من وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تقديم، عبد الرحمن شيبان، الجزائر: دار المعرفة.
29. قسوم عبد الرزاق، (2014). أعلام ومواقف في ذاكرة الأمة: انطباعات جزائرية، الجزائر: الدار العثمانية.
30. مراد علي، (2007). الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر: بحث في التاريخ الديني والاجتماعي من 1925 إلى 1940، تر: محمد يحياتن، الجزائر: دار الحكمة.

31. معمر داود (2009). مقارنة ثقافية للمجتمع الجزائري، دراسة لبعض الملامح السوسيوثقافية والاقتصادية، الجزائر، دار طليطلة.
32. مقالاتي عبد الله، (2014). إسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس وطلابه في الثورة التحريرية، عين مليلة: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.
33. ميايبي إبراهيم، (2010). قياسات من تاريخ الجزائر، الجزائر: دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع.
34. الميللي محمد، (2007). ابن باديس وعروبة الجزائر، الجزائر: الطباعة الشعبية للجيش.

للإحالة على هذا المقال:

- بورزق نوار، شنتي أحمد، (2022)، «دور جمعية العلماء المسلمين في نشر الوعي التحرري لدى المجتمع الجزائري من منظور سوسيوثقافي». المواقف، المجلد: 17، العدد: خاص، جانفي 2022، ص. ص 956-972.